# خطبة الإمام الحسين (عليه السلام)
# في آخر ليلة له في مكة

## (قراءة تأويلية)

الأستاذ الدكتور

حاكم حبيب الكَريطي

كلية الآداب / جامعة الكوفة

# The speech of Imam Hussain(peace upon him) in the last night at Mecca (reading & interpret)

***Dr. Hakem Habib AL-Gariti***
.The college of Arts/ The University of Kufa

Abstract

Rolled wrote the people of Kufa to the Imam Hussein, peace be upon him, invites him to come to them, and began messengers walk briskly to the city of Ann and another, and he saw peace be upon him that their answer has become obligatory upon, and carried them the excuse to do so, in spite of his knowledge, including to become of it, because the Prophet, peace be upon him and his family and told him Bmsrah and the deaths of his family and his companions peace on them. When the Muslims heard this, objected to some of them on his departure, peace be upon him to Iraq, fearing it, such as intercepting Mohammed bin tap and Abdullah bin Abbas, objected to some of the other surface, which is interested in his departure, such as Abdullah bin Zubair, but peace be upon him did not care about any objection, because this travel in the past is the Messenger of Allah may Allah bless him and his family and him. To Imam him end the peace that arises from the words on his travels, and calls at the same time Muslims to support him, the establishment of the argument for them, and so that the man who says he does not know this, decided to travel on perfusion eighth of the argument on the scene of Muslims gathered for the Hajj, then speeches by people of this sermon Senkeraha interpretive reading, Venmay them to manage the underlying meanings behind the virtual sense, because the conversations Ahlulbayt carry on many faces, and carrying on one side of the hand, and peace be upon him that he wanted to convey what he wants Muslims the most convenient terms and Odzlha, came his term, including that as hard facts, do not accept anything but the delivery, which is what he wants peace be upon him because it is an invitation to escape from the doom. It remains to say, that this interpretive reading, no swerving, God willing, to download statements What is unbearable is none of the cDNA, but rather seeks to touch what they can offer the language that defines Ahlulbayt Khvaya use and citizen beauty, and placements its ability to absorb the meanings that are meant to express them.

## الملخص

توالت كتب أهل الكوفة إلى الإمام الحسين عليه السلام، تدعوه إلى المجيء إليهم، وراحت رسلهم تغذُّ السير إلى المدينة بين آنٍ وآخر، فرأى عليه السلام أنّ إجابتهم صارت واجبة عليه، وقام لهم العذر في ذلك، على الرغم من معرفته، بما سيؤول إليه الأمر، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله أخبره بمصرعه ومصرع أهل بيته عليهم السلام وأصحابه. ولما سمع المسلمون ذلك اِعترض بعضهم على رحيله عليه السلام إلى العراق، خشية عليه، مثل اعتراض محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس، واِعترض بعضهم الآخر ظاهرياً، وهوراغب في رحيله، مثل عبد الله بن الزبير، ولكنّه عليه السلام لم يأبه بأي اِعترض، لأنّه بهذا السفر ماضٍ في أمر رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولكي يُنهي الإمام عليه السلام ما يُثار من كلام بشأن سفره، ويدعوفي الوقت نفسه المسلمين إلى نصرته، اقامة للحجة عليهم، ولئلا يقول قائل انه لا يعلم بذلك، قرر السفر يوم التروية الثامن من ذي الحجة على مشهد من المسلمين المجتمعين للحج، ثم خطب بالناس هذه الخطبة التي سنقرؤها قراءة تأويلية، فنعمد فيها إلى تدبر المعاني الكامنة خلف معانيها الظاهرية، لأنّ أحاديث أهل البيت عليهم السلام تُحمل على وجوه كثيرة، ولا تحمل على وجه واحد من جهة، ولأنه عليه السلام أراد أن يوصل ما يريده إلى المسلمين بأيسر العبارات وأجزلها، فجاءت عبارته متضمنة ذلك بوصفه حقائق ثابتة، لا يُقبل إلّا التسليم بها، وهوما يريده عليه السلام، لأنه دعوة إلى النجاة من الهلكة.

بقي أن نقول، إنّ هذه القراءة التأويلية، لا تجنح - إن شاء الله - إلى تحميل العبارات ما لا تحتمل فذلك ليس من قصدنا، وإنما تسعى إلى تلمّس ما يمكن أن تقدّمه اللغة التي يعرف أهل البيت عليهم السلام خفايا إستعمالها ومواطن جمالها، ومواضع قدرتها على إستيعاب المعاني التي يُراد التعبير عنها.

## المقدمة

يبدأ الإمام الحسين عليه السلام خطبته بذكر الله تعالى، فيقول (الحمد لله، وما شاء الله، ولا قوة إلّا بالله)[1].

إن افتتاح الخطبة بـ (الحمدُ لله)، يأتي متسقاً مع ما يريده الله تعالى من عباده، إذ ان أدب العبودية يقتضي، أن يحمد الإمام عليه السلام ربّه بما يحمد به نفسه في أول سورة الفاتحة، إذ جعل الحمدُ افتتاحاً للقرآن العظيم من حيث ترتيب المصحف وترتيب النزول، إذا أخذ بالقول، إن الفاتحة أول ما نزل من القرآن الكريم[2]. واستناداً إلى هذا صار ذكر الحمد في بداية الخطبة منهجاً ربانياً تمسك به أهلُ البيت عليهم السلام في أحاديثهم وخطبهم، وأرادوا أنْ يضعوا للناس أساساً في أدب الخطاب، كما عُرف ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام، وتابعهم الإمام الحسين عليه السلام في أحاديثه كلّها.

أما قوله (وما شاء الله) ففيه إشارة إلى انّ خروجه من مكة إلى العراق مرتبط بمشيئة الله تعالى، لِيُبعد عن نفوس من طلب إليه عدم الخروج إلى العراق، ما علق بها من قلق وخشية عليه، وكأنّ تذكيرهم بأنّ هذا الأمر مردود إلى ما يريده الله تعالى، سُيعيد إلى أذهانهم ما غاب عنّها عن عدم الإطمئنان إلى صحة هذا السفر الرباني، كما يظهر ذلك فيما قالوه للإمام عليه السلام في أكثر من موطن[3].

أما قوله عليه السلام (ولا قوة إلّا بالله)، ففيه تجسيد إلى أنّه عليه السلام يستمد قوته في هذا السفر من قوة الله تعالى، ولا يعبأ بما قد يُدبر له خصومه الأقوياء في الظاهر، لأنهم يمتلكون وسائل القوة بوصفهم أصحاب السلطان في الكوفة، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإنّه عليه السلام يبعث الإطمئنان مرة أخرى إلى نفوس محبّيه الذين اعترضوا على خروجه، لقلة من خرج معه، لأنّ هذه القلة تستمد قوتها من قوة الله – تعالى –.

## الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله

ثم يقفّي الإمام عليه السلام قوله السابق بذكر النبي صلى الله عليه وآله بقوله (وصلّى الله على رسوله وسلّم)، والإمام عليه السلام هنا يتمُّ افتتاح الخطبة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله بوصفها الركن الثاني من افتتاح الخطب الإسلامية، لأنها تعد استجابة لأمره تعالى (إن الله وملائكته يصلّون على النبي...)، فالصلاة هنا اتباع لله وملائكته، وهي تعظيم من الإمام عليه السلام لأمر النبي صلى الله عليه وآله، من دون أن نصرف نظرنا عن أنّ في صلاة الإمام عليه السلام على جدّه صلى الله عليه وآله تذكير لمن يسمعه ولمن يصل إليه كلامه، بأنّه ابن النبي صلى الله عليه وآله فالدعوة للنبي صلى الله عليه وآله بالصلاة، هي دعوة له عليه السلام في الوقت نفسه، وهنا تؤدي هذه الصلاة وظيفتين، عامة وخاصة على النحوالذي بيّناه.

## حتمية الموت

يذكِرّ الإمام الحسين عليه السلام سامعيه بحتمية الموت في قوله (خُط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة)[4].

إنّ حديث الإمام عليه السلام هنا عن الموت يأتي في إطار معرفته بأنّ سفره هذا إلى العراق هوسفر الى الشهادة، لأن جدّه عليه السلام أخبره بذلك وسمعه أصحابه، وعرفوا هذه الحقيقة. فقد سمع المسلمون قول النبي صلى الله عليه وآله

(إن ابني هذا يُقتل بأرض العراق فمن أدركه منكم فلينصره)[٥] فتخوّفوا من سفره، وظنّي أنّ من تخوف كان يتخوف على نفسه، لأنه مأمور بنصرة الحسين عليه السلام ولم يفعل. وهكذا تأتي إشارة الإمام هنا وكأنها جواب لمن اعترض على خروجه، لأنّ أشدّ ما يُخشى هو الموت، فأراد الإمام عليه السلام أن يريهم صورة الموت كما يراها هو عليه السلام، فقال قولته هذه التي تظهر الموت مخطوطاً على ابن آدم، كما تُخط القلادة على جيد الفتاة.

إنّ حتمية الموت يؤمن بها كل بني آدم بوصفه النهاية الحتمية لهذه الحياة، ولكنّ الإمام هنا أراد أنْ يبرز صورة الموت الجميلة من خلال الصورة التي ساقها، لأن الموت الذي يخرج إليه، هوموت جميل، فهوالشهادة التي أرادها الله تعالى للخلّص من عباده، فكانت صورة القلادة بما تظهره من جمال للفتاة، هي صورة الموت المرجوفي سفر الجهاد هذا الذي سيخرج إليه غداً. وهذا تحفيز من الإمام للمسلمين وإقامة الحجة عليهم، لأن الموت آتٍ ومخطوط على أعناقهم، وسيكون جميلاً على النحوالموصوف، لواستجابوا لقوله عليه السلام. وثمة توجيه آخر لإشارة الإمام عليه السلام هذه، يمكن أن نتلمسه في أن القلادة تحيط بعنق الفتاة، فيكون الموت جميلاً برقبة ابن آدم، التي تمثل مقتلاً رئيساً من مقاتله، ولا منجى للإنسان منه.

وقد يقال إنّ هذا الأمر معروف - كما أشرنا - فأين يكمن ما يومئ إليه الإمام عليه السلام؟

إن المناخ الذي رسم فيه الإمام عليه السلام هذه الصورة للموت، مناخ ترقّب وتوجّس وخشية مما ستؤول إليه أمور المسلمين، بعد خروج الإمام عليه السلام إلى العراق، وزاد القلق في النفوس، وحينما تأتي هذه الصورة الجميلة للموت القادم إلى كلّ حيّ، فالأولى أن يلتقي به بصورته هذه التي يضمنها السفر مع الإمام عليه السلام، أفضل من مواجهته - أي الموت -، بصورته المخيفة التي يفزع منها أغلب الناس.

بقي شيء آخر، يحسن بنا أن نشير إليه، وهوإنّ لفظة الخط غالباً ما تأتي مقترنة بالكتابة، يقال (خطّ الشيء يخطه خطاً، كتبه بقلم أوغيره)[٦]، وهذه الإشارة، تجعل الإنسان في محيط الموت بشكل دائم، لأنّ ما خُط على رقبته يكون حاضراً أمامه في كل حين، فلا مسوّغ للهرب من الموت طلباً للنجاة، لأن ذلك لن يكون، والأولى والحال هذه أن يسعى المسلم إلى مرضاة الله تعالى، ومرضاته- أن يتبع ما يريده، وما يريده جلّ شأنه، يجسده الإمام الحسين عليه السلام في سفره هذا.

## الشوق إلى الأسلاف

أظهر الإمام الحسين عليه السلام حنيناً وشوقاً إلى أسلافه بقوله (... وما أولهني إلى أسلافي إِشتياق يعقوب إلى يوسف)[٧].

يُبدي الإمام عليه السلام وله وشوقه إلى أسلافه الذين رحلوا إلى الملكوت الأعلى، وعلى الرغم من أنه لم يذكر أسماءهم، فإنّ الذهن لا ينصرف الّا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفاطمة وعلي والحسن- عليهم السلام، فهؤلاء الأسلاف هُم الذين طهرهم الله تعالى من الرجس وهومعهم. وهذا الشوق يعني رغبته عليه السلام في اللحاق بهم شهيداً، بعد أن رأى مجافاة الحكام للإسلام المحمدي، ويبدوأنّ إيمانه المطلق بقرب استشهاده، رغّبَهُ وشوّقَهُ إلى أهله، وراح يتمنى قرب اللحاق بهم، لأنّ هذا التمني هوتحقيق لما أخبره به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أجل تجسيم صورة هذا

الشوق، استحضر عليه السلام اشتياق يعقوب إلى يوسف الذي فقد بصره من فرط بكائه وحزنه على ابنه يوسف عليه السلام، إذ وصفه الله تعالى ﴿...وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يوسف من الآية ٨٤.

وأغلب الظّن، أن الحسين عليه السلام اختار اشتياق يعقوب مثلاً لحاله، لأنّ شوق يعقوب كان مقروناً بالحزن والغضب معاً، ولكنه لم يضطرب عندما ابتلي ولم يجزع، وإنما كان صابراً محتسباً... فالإمام أراد أنْ يظهر ذلك كلّه في هذا الابتلاء الذي سيرحل إليه غداً، من دون أن تفتر همّته، وهويريد الرحيل لمقارعة الظلم الذي وقع على المسلمين، ومن هنا تتجلى لنا دقة المقارنة بين حاله عليه السلام وحال يعقوب عليه السلام في الأحوال كلّها.

والآن هل يمكن أنْ نقول، إنّ الإمام الحسين عليه السلام بهذه المقاربة، أراد من المسلمين أن يستحضروا حال يعقوب بتفاصيلها كلّها ويوازنوا بينهما، لينتهوا إلى حقيقة مؤداها، إنّ ما وقع من ظلم عليه عليه السلام إنما كان بسبب ما وقع على المسلمين.

## المصرع

يلتفت الإمام عليه السلام إلى مصرعه الذي سيرحل إليه فيقول: (وخِيرَ لي مصرع أنا لاقيه)[٨].

الذي نلحظه إبتداءً في هذا الجزء من خطبة الحسين عليه السلام أن المصرع الذي سيرحل إليه ليلقاه أختير له من الله تعالى، وآثر أن يبني الفعل للمجهول(خِير)، لأنّ المتلقي سيتقبل الدلالة على وجهها الصحيح، فمصرع الإنسان بيد الله تعالى في الإطار العام، ولكن قد يكون في إطاره الخاص بسبب كالغرق والحرق... إلخ، ولكن الإمام عليه السلام باختياره لهذا الفعل(خِير) أخبر بتحقق هذا المصرع حتماً، وهوالقتل، فالشهادة اختيار رباني له ولا محيص عنها، فهي فرض وقضاء محتوم منه جلّ شأنه، ولكنه جميل لأن المختار هوالله.

وبالتفاتة أخرى إلى هذا النص، نرى ان ذكر المصرع، يعني الموت قتلاً كما ألمحنا، لأن الأصل في (الصرع) الطرح بالأرض، وهوخاص بالإنسان[٩]. والإنسان يسقط صريعاً في الحرب عادة، فصار مصرعه شهادة بسيوف خصومه.

بقي أن نشير إلى أنّ هذا الأخبار منه عليه السلام يؤكد اطمئنانه إلى وقوع هذا الأمر حتماً، وأراد أن ينقل إلى متلقيه صدق ما ينتظره في الرحيل إلى السماء. فآثر الاتكاء على قدرة اللغة في إيصال ما يريده، واستناداً إلى هذا استعمل (أنا لاقيه) في نهاية هذه الجملة، ليؤكد ثبات هذا المصرع من خلال ثبات الجملة الاسمية هذه التي أخبر بها.

وقد ورد كثير من الروايات التي أظهرته عليه السلام وهوينقل إيمانه بمصرعه هذا إلى الآخرين الذين اعترضوا على خروجه، فقد روي أن أخاه محمد بن الحنفية، رغب بثنيه عن الرحيل بأي وجه، فأبى عليه السلام وقال له في جملة ما قال (والله يا أخي لوكنت في حِجر هامة من هوّام الأرض لاستخرجوني منه حتى يقتلوني)[١٠].

إنّ تصدير الحسين عليه السلام لقولته هذه بالقسم، يشعرنا بتحقق مصرعه ولا يفصله سوى ما يقطعه من الطريق إليه.

ويتم عليه السلام الإشارة إلى مصرعه في خطبته فيقول

(كأنّي بأوصالي تُقطّعُها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشاً جوفا وأجربة سُغبا)[١١].

إنّ هذا التوصيف الذي بسطه الحسين عليه السلام لصورة مقتله، ينبئ بأنه يرى هذا المصرع ماثلاً أمامه على النحوالذي سيقع تماماً، ومن هنا استعمل (كأنّي) لقدرتها على الإشارة إلى ما سيقع مع توكيده، بما يُبعده من دائرة الشك التي قد يأخذها المعترض حجة للاستمرار في اعتراضه، وتبعث الطمأنينة في نفوس من سيخرج معه، لأنّ الخروج الذي عاقبته الشهادة هوخروج لله، وليس لطلب الدنيا، فالنهاية عُرفت ولا دنيا بعدها.

ويُظهِر الحسين عليه السلام بشاعة ما سيتعرض له، من خلال الإشارة إلى انّ أوصاله ستقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء. وليس من شك ان المراد بعُسلان الفلوات في قوله عليه السلام هم خصومه الذين سيقتلونه، إذ يُشبهون فيما يفعلونه بذئاب الفلوات، وهذا الاختيار لعسلان الفلوات، يتلاءم حقاً مع سلوك هؤلاء الخصوم فهم يغدرون به، وهذه من صفات الذئب، إذ ضرب العرب المثل بغدره فقالوا (أغدر من ذئب)[١٢]، ويظلمونه عليه السلام، وذكر الذئب يحقق ظلمهم، إذ جاء في المثل (أظلم من ذئب)[١٣]، وهذه الأفعال لا يمكن أن تصدر إلّا من يكون الجبن صفة لازمة له، وهي الأخرى يجسدها ذكر العسلان في قوله، لأن الذئب مشهور بجبنه[١٤].

إنّ ما يجعلنا نتحول بظننا إلى يقين في هذه الجزئية- العسلان- الخصوم، ما قاله الإمام عليه السلام (كأنّي بأوصالي تقطّعها)، ولم يقل تفترسها أوتأكلها، حتى لا يذهب المعنى إلى معنى الذئب الحيوان.

وثمة إلتفاتة أخرى تبرز أمامنا، وهي إنّ الإمام عليه السلام، أراد أن يظهر بشاعة فعل خصومه، حينما يقتلونه، فكان الذئب ركيزة لبيان ذلك، فهومن الحيوانات المأمور بقتلها ابتداءً، لأن ما ذكر من صفاته كافٍ لذلك، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، انه أجاز للمحرم قتل الذئب على الرغم من احرامه[١٥].

أما تخصيص الإمام عليه السلام، لمكان مقتله بين النواويس وكربلاء، فينبئ عن الوعد الصادق الذي وُعد به من قبل- كما ألمحنا-، وظنّي أن ذكر المكان بهذا التحديد الدقيق، يكشف للآخرين - مرة أخرى- أنّ الحسين عليه السلام أخذ ذلك عن جدّه، لأنّ النواويس وكربلاء لم يكن لهما أيّة شهرة، بين المسلمين بعد، إذ ان الكوفة والبصرة تعنيان العراق عصرئذٍ، ولوذكر عليه السلام الكوفة لكان ذلك دالاً على مايريد ولكنه ذكر ما يعرفه عن مكان مصرعه الدقيق، لِيُعلم انه سائر بتسديد إلهي وبإيمان راسخ ويقين ثابت، يؤدي مهمة اختارها الله تعالى له، وأخبره جدّه بذلك منذ أن ذكر أمام المسلمين، ودعاهم إلى نصرته إن أدركوه- كما مرّ من قبل- وكما فعل ذلك أنس بن الحارث الكاهلي الذي سمع الحديث وصحب الحسين عليه السلام منذ خروجه من المدينة واستشهد بين يديه يوم الطف [١٦].

أما قوله عليه السلام (فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سُغبا)، فهويبان لقبح ما يفعله الخصوم به، إذ انّ جوعهم إلى مقتله، سيملأ أكراشهم الجوفاء وأوعيتهم الخالية، وكأن الحقد أفرغ أكراشهم وأجربتهم فظلّت خاوية، حتى تملأ من مقتله، وهذا الامتلاء المجازي للأكراش والأجربة يتناغم مع ذكر العُسلان الحقيقية،

وفي الوقت نفسه ينحوبالدلالة إلى وجهها المجازي، لأن لفظة (السغب)، لا تستعمل إلّا مع الإنسان[١٧]، فيكون هذا التقييد الدلالي كافياً لتوجيه الأكراش والأجربة إلى بني الإنسان ممّن يستبدلون بسماتهم الإنسانية، سمات الذئاب المتوحشة.

إن هذا التصوير الذي قدمه الإمامعليه السلام، أراده عاماً للمناهضين له، فهوعليه السلام يمثل زهوالحق، وأولئك يمثلون وجه الباطل البشع، وستكون مهمتهم تقطيع أوصال الحق واشباع رغباتهم المستعارة من الذئاب بوصفه الحيوان الأكثر خبثاً من بين الحيوانات[١٨]. ثم يضيفعليه السلام إلى ما سبق قوله (لامَحيص عن يوم خُطَّ بالقلم)[١٩].

يعود الإمامعليه السلام هنا مرة أخرى إلى تقرير حقيقة هوراحل إليها وهي حقيقة الموت. فلا محيص (والمحيص: المهرب والمحيد)[٢٠] عن اليوم الذي خَطّه الله تعالى بالقلم، وذكر القلم هنا، يُعيد إلى الأذهان التي اضطربت ثبات ما ينتظرهعليه السلام من شرف الشهادة، لأنّ هذه النعمة التي منحها الله تعالى له سيكون لها شأن كبير كما أخبر بذلك جدّهصلى الله عليه وآله وأبوهعليه السلام كما مرّ بنا من قبل.

ويلوح لنا هنا أنّ الحسينعليه السلام أراد بقوله (لا محيص) أن يحرك من كان يخشى الموت، خشية تقيده عن الخروج معه، إذ يدرك من هذا القول أنّ نهايته ستأتيه في وقتها المخطوط بالقلم.

وظنّي أن ما قاله الإمامعليه السلام في هذه الجزئية – وفي غيرها – كان كافياً ليجعل الأسى السلبي غالباً على من تخلف عن نصرته، ثم تحول ذلك الأسى إلى ثورة هائلة زلزلت سلطان الأمويين في العراق، وهي ثورة التوابين، إذ انّ تخلفهم عن نصرة الحسينعليه السلام، لم تنفعهم بشيء، فكانوا أمواتاً بصورة أحياء، حتى نهضوا من جديد، ولكن أي نهوض بعد ما وقع الذي خُطّ بالقلم ؟ لا ولم يجدهم نفعاً.

## أهل البيت (عليهم السلام)

يذكّر الإمام الحسينعليه السلام سامعيه، ومن يصل إليه كلامه من المسلمين، بمقام أهل البيتعليهم السلام عند الله سبحانه وتعالى، وعلى الرغم من أنّ المسلمين جميعاً، يعرفون ذلك المقام الكبير منذ خصّهم الله تعالى بآية التطهير بل من قبل ذلك، ولكنّ أغلبهم لم تأخذه معرفته إلى التمسك بمنهجهم، ومن هنا رأى الإمامعليه السلام أن يودع المسلمين في مكة بهذه الإشارة التي تجعل التخلف عن نصرته، مخالفة لما يريده الله تعالى، يقول الإمام في خطبته (رضى الله رضانا أهل البيت)[٢١].

شدّ الإمامعليه السلام رضا الله تعالى برضا أهل البيت عليهم السلام، وهذه القولة، تحمل أمراً كبيراً يتصل بالعقيدة الإسلامية، إذ إنّ أهل البيتعليهم السلام البيان الأرضي لإرادة الله سبحانه وتعالى. وفي هذا رعاية ربانية للخلق إذ ما عليهم من أجل الوصول إلى رضا الله سبحانه وتعالى إلّا التمسّك برضا أهل البيتعليهم السلام، ورضاهم يعني تمثل سيرتهم والسير على نهجهم، فرضا الله هوالمنهج الذي أنزله في كتابه وجسده أهل البيتعليهم السلام في حياتهم.

فالخضوع لأهل البيتعليهم السلام وتوقيرهم، والتمسك

بمنهجهم سبب في قبول الأعمال، وقبول الأعمال غاية ما يسعى إليه المسلم.

ولا بأس أن نلتفت إلى وجه آخر في هذه المقاربة المعرفية فنقول، إن الله تعالى شاء أن يكون النبيﷺ وأهل بيته قواماً للدين كلّه، أي الدين بمفهومه العام الذي جاء به الأنبياء السابقون وختم بالنبيﷺ، وبعبارة أخرى الدين هو(الميثاق) الذي جاء ذكره في قوله تعالى﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ...﴾ آل عمرا ن:٨١، ومن مقامات الدين الكبرى ولاية أهل البيتعليهم السلام، الذين يسعون إلى إقامة العدل الإلهي، ومن يريد أن يصل إلى رضا الله تعالى، عليه إتيان الدين من أبوابهم، فإذا نال رضاهم، نال رضا الله تعالى، لأنه جلّ شأنه اختار لهم هذه المنزلة ليكونوا باباً ووسيلة إليه.

وما قدمناه يُحتّم على المسلم أن يتودد إلى أهل البيتعليهم السلام، ويكون مشمولاً بدعاء إبراهيمعليه السلام ﴿... فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ...﴾ سورة إبراهيم من الآية ٣٧، فدعوته هنا خاصة بالنبي وآله[٢٢]، ومودتهم تعني طاعتهم، وطاعتهم تقود إلى رضاهم ثم إلى رضا الله تعالى.

وثمة رواية تجسّد ما قلناه، فقد ورد عن النبيﷺ قوله، إنّ الله خلقهم وأدلّ آدم على أشباحهم ثم قال له (... وهؤلاء خيار خلقي وكرائم بريتي، بهم أَخذ وبهم أعطي، وبهم أعاقب وبهم أثيب فتوسل بهم يا آدم، وإذا دهتك داهية، فاجعلهم إليّ شفعآءَكَ فإني آليت على نفسي قسماً حقاً لا أخيّب بهم أملاً ولا أرد لهم سائلاً)[٢٣].

إن هذا الحديث النبوي الشريف، يجعل ما قاله الحسينعليه السلام في خطبته حقيقة يتمثلها المسلمون الذين ولا شك سمعوها من النبيﷺ.

إنّ ما قدمناه هنا، جعل رؤيتنا واضحة لدلالة ما يريده الإمام الحسينعليه السلام، بهذا الجزء من خطبته، وما دام هوعليه السلام راحل إلى الجهاد أراد أن يقيم الحجة على المسلمين، ويذكّرهم بما يأمرهم الله تعالى به من نصرته، بهذا التلويح المعرفي الموجز، ويهيء لهم سبيلاً من سبل النجاة من غضب الله تعالى، فمن يتخلف عن نصرته يقع في دائرة ذلك الغضب. لأنّهم أهل العصمة الذين طهّرهم الله تعالى ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾الأحزاب من الآية ٣٣، ولا يقبل عمل من مسلم تخلف عن نصرتهم أولم يتمسك بمنهجهم، أولم يجعلهم وسيلة إلى الله سبحانه وتعالى.

## صفات أهل البيت (عليهم السلام) ومنزلتهم

يلتفت الإمام الحسينعليه السلام إلى ذكر بعض صفات أهل البيتعليهم السلام، التي تتناغم مع المناخ الذي قال فيه خطبته، فيقول: (.....نصبرُ على بلائه ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذّعن رسول الله لحمته وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرُّ بهم عينه ويُنجز بهم وعده...)[٢٤].

يشير الإمام هنا إلى ما ينتظره في سفره هذا من بلاء ربّاني له ولصحبه، وقد أضافعليه السلام (البلاء) إلى الله تعالى، لأنّ ما سيواجهونه اختبار إلهي، إذ سيمتحنهم الله تعالى بهذا التكليف الجهادي الذي لا يقوى عليه

إلّا من جُبلت نفسه على الصبر في مواطن الجزع والضعف.

وثمة التفاتة أخرى في نسبة الابتلاء إليه جلّ شأنه لأنّ ما سيقع، من المعلوم لهعليه السلام المبلّغ به عن جدّه وأبيه، واستناداً إلى هذا، صار الصبر الذي يتحلّون به، هوالصبر المذكور في قوله تعالى﴿... إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾الزمر من الآية ١٠، وهوالأمر الذي يُعطيه الله تعالى تاماً بغير حساب، أي لا يحاسبون كما يحاسب غيرهم، لأنّ ما بلغوه من مرتبة ربّانية تهيء لهم هذا كلّه.

ولا بأس من الإشارة هنا إلى انّ الصبر محمود كلّه، ولكنّ الحسينعليه السلام خصّ هنا الصبر على المصيبة، لأنّ عصمة أهل البيتعليهم السلام تبعدهم عن المعصية[٢٥]، وتجعلهم في محيط الطاعة المطلقة لله تعالى ولكنّ ما يواجهونه من مصائب، تجعلهم مصداقا ربما من مصاديق الآية الكريمة المشار إليها. وقد جاء عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم قوله: (إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان ولم ينشر لهم ديوان)[٢٦]، ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ سورة الزمر من الاية ١٠.

وليس من شك أن ما قاله الحسينعليه السلام بهذا الخصوص، يمكن أن ينتفع به من رحل معه في سفره هذا، وهوفي الوقت نفسه، بشرى لأصحابه الثابتين الذين خرجوا معه والذين يرحلون معه في يوم سفره، وهم حقاً سيكونون من أهل البلاء الذين ذكرهم في قوله.

أما قولهعليه السلام (لن تشذ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة في حظيرة القدس، تقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده).

آثر الإمام الحسينعليه السلام هنا أن يذكّر المسلمين بالنبيصلى الله عليه وآله وسلم ومن خلاله ينظرون إلى أهل بيته الممثلين به الآن، فأعلمهم- وهم يعلمون أنهم لحمة النبيصلى الله عليه وآله وسلم، ولن يشذّوا عنه، فهم يريدون حفظ الدين، والاستماتة دونه، بعد أن رأوا أن بين المسلمين، من يريد أنْ ينحرف به عن مساره الرباني النبوي، فالتمسك النهج النبي، منهجٌ لأهل بيته، ومن هنا جاء نفيه للشذوذ عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم بهذه الصيغة القاطعة، فالنفي بـ(لن) يفيد التوكيد[٢٧] كما هومعلوم.

وثمة إشارة مهمة تنطوي عليها هذه العبارة، وهي لفظة (لحمته)، فقد استعمل الإمامعليه السلام هذه اللفظة ليؤكد من خلالها شدة امتزاج أهل البيت بسيدهم النبيصلى الله عليه وآله وسلم فاللحمة تعني في اللغة لحمة الثوب التي تخالط سدى الثوب حتى يصيرا كالشيء الواحد لما بينهما من المداخلة الشديدة [٢٨]، فأهل البيت مع النبي كالشيء الواحد باستثناء النبوة، والراجح انّ الإمام الحسينعليه السلام، أراد أن يلفت نظر المتلقين إلى هذا الامتزاج بين أهل البيت جميعاً، بالدلالة اللغوية، بعد أن فرّط أغلب المسلمين بالدلالات القرآنية والأحاديث النبوية التي تجسد هذا المعنى، وأن كان في تلك الدلالات ما يُغني عن هذه الدلالة، بل ويزيد عليها، لأنّ المعنى الاصطلاحي، يحمل المعنى اللغوي وزيادة.

ثم يذكر الإمام عليه السلام أنّ الله تعالى سيجمع لحمة النبي صلى الله عليه وآله معه في حظيرة القدس، أي الجنة، والإمام هنا يُعيد إلى أذهان المسلمين حديث النبي صلى الله عليه وآله، الذي قاله (أنا وفاطمة وعليٌ والحسن والحسين في حظيرة القدس في قبة بيضاء سقفها عرش الرحمن)[٢٩]. وهنا توكيد آخر منه عليه السلام على ان سفره إلى الجنة إلى حظيرة القدس، فما عذر من يتخلف عنه؟.

ويستحضر الإمام الحسين عليه السلام، الوعد الذي وَعدَ النبي صلى الله عليه وآله، وجعل اجتماعهم به صلى الله عليه وآله من جملة ذلك الوعد، ليؤكد المنزلة التي يتبوأها أهل البيت عليهم السلام عند الله تعالى. فقد وعد الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله بأن يبعثه مقاماً محموداً في قوله تعالى ﴿... عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ الإسراء من الاية ٧٩، وقد ذهب المفسرون إلى أكثر من وجه في تفسير هذا المقام ولكن أظهر هذه الوجوه هو الذي يقول المقام المحمود هو(المقام الذي يحمده عليه جميع الخلائق وهومقام الشفاعة الكبرى له صلى الله عليه وآله يوم القيامة)[٣٠] حتى انّه صلى الله عليه وآله ليشفع لبعض من ادخل النار[٣١].

وفي أحاديث الأئمة عليهم السلام وأدعيتهم، ما يؤكد هذا المعنى، اي معنى الشفاعة، فعن معاوية بن وهب أنه سمع الإمام الصادق عليه السلام يناجي ربه بعد أن انتهى من صلاته يقول: (يا من خصّنا بالكرامة وخصّنا بالوصية ووعدنا الشفاعة)[٣٢]، فالشفاعة هنا وعد يُنجز حينما يحلّ موعده يوم الوقوف بين يدي الله تعالى، ومن جمع الرواية والتفسير السابق، يظهر أن الوعد في إشارة الإمام هذه هوالمقام المحمود الذي وعد به النبي صلى الله عليه وآله وذكّر به الحسين عليه السلام من يصل إليه كلامه من المسلمين.

ويُنهي الحسين عليه السلام خطبته هذه بقوله: (من كان باذلاً فينا مهجته وموطِّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحل مصبحاً إن شآء الله تعالى)[٣٣].

هذا القول لا يحتمل إلّا وجهاً واحداً، فمن يكون قادراً على بذل مهجته، والباذل (كل من طابت نفسه باعطاء شيء فهوباذل لـه)[٣٤]، والمهجة (دم القلب، ولا بقاء للنفس بعد ما تراق مهجتها)[٣٥]، وموطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معه عليه السلام في سفره هذا.

إنّ الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة، وضع خيارين أمام المسلمين، واكتفى بذكر الأول، لأنه الأصل الذي يُعوَّل عليه، وهوخيار الشهادة فالموت في هذا السفر حقيقة واقعة، لا بوصفه نهاية لكل بني آدم، وإنّما هوواقع في زمن محدد يعرفه الحسين عليه السلام كما أبلغ به من جده – أشرنا إلى هذا في أكثر من موطن–، ومن هنا، فمن يريد ملاقاة الموت ثم لقاء الله تعالى، يكون رحيله معهم تحقيقاً لذلك.

إن هذا اليقين الثابت برسوخ الموت الذي أنبأ به الحسين عليه السلام، سيُبعد من لا يقوى على مواجهته على النحوالمشار إليه، ومن هنا سيكون الخذلان والتردد بعيدين عن من سيصحبه، لأنّ تدبر كلامه والتفكير به، والاجتهاد في إدراك حقيقة ما يريده عليه السلام، ستجعل السفر معه، نابعاً من إرادة لا تضعفها رؤية الموت في عرصات كربلاء.

لقد تحدث الإمام الحسين عليه السلام في خطبته هذه عن أشياء سمع بها المسلمون، ولكنهم لم يأبهوا بما سمعوه، فآثر أن يسمعهم إياها بنفسه بإطار بليغ، يدحض به حجة من يريد أنْ يحتج عليه، ويقطع طريق من

يعترض على سفره إلى العراق، وقفّى ذلك بإخباره عن شهادته وشهادة من يرافقه في سفره، بتأكيد قاطع، يطوّح بالشك بعيداً عن نفوس من يسمعه، وبعد شهادته تحقق ما أخبر به تماماً وكأنه كان ينظر إلى الغيب بعين الشاهد الذي يرى ما يعدّه الناس غيباً، ولعل في الرواية الآتية، ما يظهر استشعار من حاججه عليه السلام على سفره. فقد روي عن ابن عباس أنّه قال: (أتيت الحسين وهويخرج إلى العراق، فقلت له: يا بن رسول الله: لا تخرج، فقال: يا بن عباس، أما علمت أنّ منيتي من هناك، وأن مصارع أصحابي هناك، قلت له: فأنى لك ذلك؟، قال: بسرٍّ سُرَّ لي وعلمٍ أعطيته)[٣٦].

لقد تحقق إذاً كل ما أخبر به أبوعبد الله عليه السلام، عن شهادته وشهادة أصحابه، وتقبلوا ذلك كلّه ورضوه مقبلين بعقيدة تحقق فيها نهج أهل البيت وسيرتهم في سفر الجهاد الرباني الّذي تمسكوا به، دفاعاً عن عقيدة التوحيد التي أمسكها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتولّاها أمير المؤمنين بعده، ثم أفضت إلى الإمام الحسن عليه السلام، لتنتقل منه إلى الإمام الحسين عليه السلام وهكذا أفصحت هذه العقيدة عن نفسها من خلال خطبة الإمام عليه السلام هذه التي جمع فيها ما سيواجهه في سفره من الحجاز إلى العراق، إشارات موجزة مكثفة زاخرة بالمعاني التي أرادها وسيلة لدعوة المسلمين إلى السير في طريق النجاة معاً، بعد أن رأى ما آلت إليه حال المسلمين، وكان قد أخذ أمره من النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما ظهر ذلك في ثنايا البحث.

## الهوامش

(١) شرح الأخبار ٢/ ١٤٦، المسائل العكبرية ٧١، ذوب النضار ٣٠.

(٢) ينظر مجمع البيان ١٠/ ٣٩٨.

(٣) ينظر تفاصيل ذلك في الأخبار الطوال ٢٤٤، شرح نهج البلاغة ٢٠/ ١٣٤، الدرجات الرفيعة ١٣٠.

(٤) شرح الأخبار ٢/ ١٤٦.

(٥) مناقب آل أبي طالب ١/ ١٣٢.

(٦) (لسان العرب (خطط).

(٧) شرح الأخبار ٢/ ١٤٦.

(٨) كشف الغمة ٢/ ٢٩.

(٩) ينظر لسان العرب (صرع).

(١٠) بحار الأنوار ٤٥/ ٩٩.

(١١) مثير الأحزان ٤١، اللهوف ٢٦.

(١٢) مجمع الأمثال ٢/ ٦٧، وينظر الحيوان ١/ ٢١٣، ١/ ٢٢٠.

(١٣) جمهرة الأمثال ٢/ ٢٧، مجمع الامثال ١/ ٤٤٦.

(١٤) ينظر الحيوان ٦/ ٢٩٩.

(١٥) ينظر الكافي ٤/ ٣٦٤.

(١٦) ينظر مناقب آل أبي طالب ٤/ ١٠٢، مقتل الحسين ٢/ ١٨.

(١٧) ينظر لسان العرب (سغب).

(١٨) ينظر الحيوان ٦/ ٤١٠.

(١٩) كشف الغمة ٢/ ٢٩.

(٢٠) لسان العرب (حيص).

(٢١) كشف الغمة ٢/ ٢٩.

(٢٢) غاية المرام ٤/ ١٧٨.

(٢٣) ينابيع المودة ١/ ٢٨٩.

(٢٤) مثير الأحزان ٤١.

(٢٥) ينظر الميزان ١٧/ ٢٤٤.

(٢٦) مجمع البيان ٨/ ٣٨٩.

(٢٧) ينظر معاني النحو٣/ ٣٥٤.

(٢٨) ينظر لسان العرب (لحم)

(٢٩) كنز العمال ٢/ ٩٨.

(٣٠) الميزان ١٣/ ١٧٥.

(٣١) الكافي ٤/ ٥٨٢.

(٣٢) كشف الغمة ٢/ ٢٩.

(٣٣) كشف الغمة ٢/ ٢٩.

(٣٤) لسان العرب (بذل).

(٣٥) لسان العرب(مهج).

(٣٦) دلائل الإمامة ١٨٢.

## المصادر


**القرآن الكريم.**

١. الأخبار الطوال، أبوحنيفة الدينوري (ت٢٨٢هـ)، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة د. جمال الدين الشيّال، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٦٠م.

٢. بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، بيروت، لبنان.

٣. جمهرة الأمثال، أبوهلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٤. الحيوان، الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ.

٥. الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة، ابن معصوم (صدر الدين السيد علي المدني ت ١١٢٠هـ)، مكتبة بصيرتي، قم، ط٢، ١٣٩٧هـ.

٦. دلائل الإمامة، محمد بن جرير الطبري (ت أوائل القرن الرابع الهجري)، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، قم، ط١، ١٤١٣هـ.

٧. ذوب النضار، ابن نما الحلّي (ت ٦٤٥هـ)، تحقيق فارس حسون كريم، مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين، قم، ١٤١٦هـ.

٨. شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، القاضي المغربي (النعمان بن محمد التميمي المغربي ت ٣٦٣هـ)، تحقيق السيد محمد حسين الجلالي، مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين، قم.

٩. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، دار إحياء الكتب العربية.

١٠. غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧هـ)، تحقيق السيد علي عاشور، قم، ١٤٢١هـ.

١١. الكافي، الشيخ الكليني (ت ٣٢٩هـ)، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، مطبعة حيدري، ط٣، ١٣٨٨هـ.

١٢. كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبوالفتح الأربلي (ت ٦٩٣هـ)، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٥ه - ١٩٨٥م.

١٣. كنز العمال، المتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ)، تحقيق

الشيخ بكري حياني والشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.

١٤. لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، لبنان.

١٥. مثير الأحزان، ابن نما الحلي (ت ٦٤٥هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

١٦. مجمع الأمثال، الميداني (ت ٥١٨هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٧. مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الطبرسي (ت ٥٦٠هـ)، تحقيق لجنة من العلماء والمحققين الاخصائيين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤١٥هـ.

١٨. المسائل العكبرية، الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، دار المفيد، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

١٩. معاني النحو، د. فاضل السامرائي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، مطبعة الحكمة، جماعة الموصل، ١٩٩٠م.

٢٠. مقتل الحسين عليه السلام، أبومخنف (لوط بن يحيى ت١٥٧هـ)، تحقيق الحاج ميرزا حسن الغفاري، المطبعة العلمية، قم، ١٣٩٨هـ، مكتبة آية الله المرعشي النجفي.

٢١. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب (ت٥٨٨هـ)، تحقيق نخبة من أساتذة النجف الأشرف، المَطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ.

٢٢. الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين، قم.

٢٣. ينابيع المودة لذوي القربى، الشيخ سليمان القندوزي الحنفي، تحقيق سيد جمال أشرف الحسيني، مطبعة الأسوة، ط١، ١٤١٦هـ.